المجلَّة الأردنيَّة في

اللُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة علميَّة عالميَّة محكّمة

المجلد (٣) العدد (٣) جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ / تموز ٢٠٠٧م

رئيس التحرير
أ.د سمير الدروبي

سكرتير التحرير
سالم سليمان الجعافرة

هيئة التحرير

أ.د. حسين عطوان	أ.د. نهاد الموسى
أ.د. يوسف بكار	أ.د. محمود مغالسة
أ.د. عبدالفتاح الحموز	أ.د. خالد الكركي

الهيئة الاستشارية للمجلة

أ.د عبدالكريم خليفة	أ.د ناصر الدين الأسد
أ.د محمود السمرة	أ.د شاكر الفحام
أ.د أحمد الضبيب	أ.د عبدالملك مرتاض
أ.د أحمد مطلوب	أ.د عبدالسلام المسدي
أ.د محمد بن شريفه	أ.د عبدالعزيز المقالح
أ.د عبدالعزيز المانع	أ.د عبدالقادر الرباعي
أ.د عبدالجليل عبدالمهدي	أ.د صلاح فضل

التدقيق اللغويّ

أ.د. حسام الدين مبيضين (انجليزي)
د. جزاء مصاروة (عربي)

التنضيد والاخراج الضوئيّ
نهلة عبدالكريم يونس

التدقيق الفني
نايف النوايسة

محتويات العدد

المجلد (٣) العدد (٣) جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ / تموز ٢٠٠٧م

البحوث باللغة العربية

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحات
• **المنامات الأيوبية: روافد التلقي – الرؤية الفكرية – البنية السردية**	د. خالد محمد الجديع	١١-٦٢
• **المفارقة ذات المعطيات التراثية في ديوان "يمر هذا الليل"**	د. ثناء نجاتي عياش	٦٣-٨٨
• **الألفاظ الملازمة للنفي في تراكيب العربية (دراسة وصفية دلالية)**	د. جزاء محمد المصاروة	٨٩-١٠٦
• **المنية في الشعر (دراسة في دلالتها وصورها الاستعارية)**	د. خليل عبد سالم الرفوع	١٠٧-١٣٠
• **الملكة اللغوية عند ابن خلدون: دراسة لسانية معاصرة**	د. فايز عيسى المحاسنة	١٣١-١٤٩
• **الطعينة في قصيدتي الهجاء والمديح عند بشر بن أبي خازم الأسدي: قراءة تأويلية ثقافية**	د. يوسف محمود عليمات	١٥١-١٨٥
• **عمان في شعر حسن بكر العزازي**	د. حامد كساب عياط	١٨٧-٢٢٧
• **الرسالة الجدية لأبي الوليد أحمد بن زيدون ٤٦٣-١٠٧٠م (تحقيق)**	د. عبدالحليم حسين الهروط د. محمود عبدالرحيم صالح	٢٢٩-٢٥٠
• **النظرية الأسلوبية: مقاربة بنائية لاكتناه التماسك النصي وفرادة التشكيل**	د. عبدالله عنبر	٢٥١-٢٨٦
• **معارضة (ملقي السبيل) للمعري في الأندلس**	د. أيمن محمد ميدان	٢٨٧-٣١٥

الملكة اللغويِّة عند ابن خلدون

دراسة لسانيِّة مقارنة

د. فايز عيسى المحاسنة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٣/١٢ تاريخ القبول: ٢٠٠٧/٢/٢٠

ملخّص

تدرسُ هذه الورقةُ مفهوم الملكةِ اللغويِّةِ (Linguistics Faculty) عند ابنِ خلدون*، باعتباره أحدُ روَّاد التفكير اللسانيّ في الحضارة العربيَّة، بل "هو آخرُ مَنْ حاول تقديمَ نظرة شموليّة في القضيِّة اللغويّة، تتَّسم بالجدة والطرافة"(١).

يتعلَّق مفهومُ الملكة اللغويِّة في الفكر الخلدونيّ، بأبنيةِ المواضعة اللغويّة التي تشكِّل نسيجاً مناظراً لأبنية الحقائق في التصوُّر والإدراك، وبغياب هذا المقرَّر المبدئي، يرتفع العَقْد الجماعي بين أفراد المجموعة اللسانيّة الواحدة، وهذا يعني أنَّه لا يوجدُ اختصاصٌ ما قبلي بين إنسان من البشر مع أيِّ لغة من اللغات، وإنَّما يخرج الكلام من حيِّزِ القوَّةِ إلى حيِّز الفعل، بإدراك السَّامع أوْ اهتدائه إلى نسيجِ المواضعة التي تألَّف عليها الكلام.

وتتشكَّل الملكةُ اللغويِّة، كما يقرِّر ابن خلدون على حسب مبدأ الارتياض والمعاودة، فيكون اكتسابُ الحدث اللسانيّ ناتجَ معادلة الممارسة والتكرار.

ويتطابق مفهوم الملكة اللغويِّة مع مبدأين أساسيين،هما:

- مبدأُ العلم أوْ المعرفة
- ومبدأ القدرة أوْ الاستطاعة

وبينهما من التفاعل مثلُ ما بين الإدراك والتعبير؛ أي: مثلُ ما بين التلقِّي والبثّ أو التفكيك والتركيب، وعليه، فإنَّ اللغة لها جانبان:

الأول: الأحداثُ اللغويِّة المنطوقة.

الثاني: المخزونات العقليّة.

ويلاحظ أنَّ الجانب الأول هو الأسبق؛ أي أنَّ الارتياض والمعاودة هما الأساس في الظاهرة اللغويِّة، وهذا يعني أنَّ الأصل في الخطاب هو المتلقِّي وليس الباثّ، ويتشكَّل المخزون العقلي أو المعرفة على ضوء المنطوق، وهذا هو المحور الأساس في فهم الحدث اللسانيّ عند ابن خلدون.

فهل جاء هذا التصوُّر النظري موافقاً للدرس اللسانيّ – عند أعلامه – في العصر الحديث؟

مع أنَّنا نؤكِّد – ابتداءً – على تباين المنهجين في إطارهما الفكري؛ فهما وليدا حضارتين مختلفتين.

* **قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة.**

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

* أطلق نهاد الموسى على ابن خلدون والجاحظ وابن حزم... أصحاب النظر العام (غير النحاة). انظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغويّ الحديث، عمَّان: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٠م، هامش (٥٢).

(١) المسدي، عبدالسلام: التفكير اللسانيّ في الحضارة العربيّة، ليبيا-تونس: الدار العربيّة للكتاب، ١٩٨١م، ص٣٧.

Abstract

Language Faculty According to Ibn Khaldoun:
A Comparative Linguistic Study

This present paper studies the notion of "Language Faculty" as it was understood by Ibn Khaldoun, a prominent Arab linguist who tried to offer a comprehensive and serious vision of this notion.

Ibn Khaldoun believed that language faculty refers imagination and perception. That is, the focus here is on the individual speaker who can acquire language due to two processes, practice and repetition.

Language faculty is seen in accord with two primary notions, "knowledge" and "capability" which show a similar interaction to that between perception and speaking. Accordingly, language has two aspects, performance and competence. Performance precedes competence since speech habits and repetition are the bases for any linguistic phenomenon. This amount to saying that what is more fundamental is receiving, rather than giving (i.e. perception but not speaking). Thus, according to Ibn Khaldoun, linguistic competence is formed as a consequence of performance. This sort of understanding shows a remarkable difference from that of modern times.

تعريف الملكة:

يُطلق لفظ (الملكة) في العربيّة على القدرة الفطريّة أوْ المكتسبة(١)، على أداء فعل ما، أو أعمال معيّنة بحذقٍ ومهارة(٢)، نحو: الملكة العدديّة، والملكة اللغويّة(٣).

وتحقيق هذه الملكة، أنَّها تحصل للنفس هيئة (Disposition) بسبب فعل من الأفعال(٤).

وهي التي تسمَّى حالة (Status)، فلا تلبث أن تزول بسرعة، فإذا ما تكرَّرت، ومارستها النَّفس، فإنَّها تتمكَّن وتصبح راسخة، ويكون تلاشيها وزوالُها بطيئاً، فتصبح ملكة(٥).

فعل ⟵ هيئة ⟵ كيفيّة نفسانية (حالة) ⟵ ملكة

ويرى جوفروا (Jouffroy) بأنَّه ليس للنَّفس سوى ملكة حقيقيِّة واحدة "الاستطاعة

(١) الحلو، عبده: **معجم المصطلحات الفلسفيّة**، بيروت: المركز التربوي للبحوث والإنماء، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٤، ص٦٤، وانظر الحنفي، عبدالمنعم: **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي** ، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٤، ٢٠٠٠م، ص٢٩٩.

(٢) عبدالخالق، أحمد محمّد: **معجم ألفاظ الشخصيّة**، الكويت: مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٥٢، وانظر: **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربيّة، القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٧٣م، مادة (ملك).

(٣) عبدالخالق، أحمد محمّد: **معجم ألفاظ الشخصيِّة**، مرجع سابق، ص٥٥٢.

(٤) الحنفي، عبدالمنعم: **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٨٣٤، وانظر: الجرجاني: **التعريفات**، بيروت،: مكتبة لبنان، ١٩٨٥م، ص٣٤٧.

(٥) المناوي، محمّد عبدالرؤوف: **التوقيف على مهمَّات التعاريف**، تحقيق: محمّد رضوان الداية، دمشق: دار الفكر، ١٩٩٠م، ص٦٧٥.

الشخصيِّة"، و "قدرات شتَّى" لا تكون ملكات إلاَّ بقدر ما تستحوذ الاستطاعة الشخصيِّة عليها وتقودها[١].

لا تفسِّر الملكةُ من وجهة النظرة العلميِّة كلَّ شيءٍ، وعليه، فإنَّ العلماء بحاجة إلى فكرة ما تنسجم معها، وتعبِّر عن مثل هذه الفكرة على الدوام؛ لأنَّ للغة الإنسانيِّة كلَّها أساساً فلسفيّاً[٢].

وقد عرَّف دونسيل الملكة[٣] بأنَّها "المبدأ القريب أو المباشر للعمليات الذهنيِّة"، وهو مبدأ (الأنا)، فهو الذي ينفِّذ العمليَّات، فكما أنَّ المبدأ القريب الذي تنجز بوساطته العمليَّات الفسيولوجيِّة هو العضو؛ فإنَّ المبدأ القريب الذي تنجزُ بوساطته العمليَّات الذهنيِّة، هو الملكة[٤].

ويرى دونسيل، أنَّه يجب أنْ لا نعدّ الملكات كائنات كاملة منفصلة تعمل على مسؤوليّتها، وباستقلال الواحدة عن الأخرى. فالملكة لا تعمل، وإنَّما هو شيء بوساطته نقوم بالعمل، إنَّها ليست العين التي ترى، ولا الذهن الذي يفكِّر، ولكنَّني أرى من خلال عيني وأفكِّر بوساطة نشاطي العقلي[٥].

وعلى ضوء ما تقدَّم من تعريف العلماء للملكة والمراحل التي تسلكها حتَّى تصبح صفة راسخة في العضو الفاعل لها، يمكن أن نخلص إلى أنَّها: القدرة على التحكُّم في عمل ما أو التصرُّف به، بعد أن تستولي عليه النَّفس وتستبدّ به، فيعود إليها منه صدى أو رجع من تتابعه وتكراره ليصبح صفة راسخة.

أهميّة البحث:

تأتي أهميِّة هذه الورقة، لِمَا تحمله من آراءٍ لغويَّةٍ، تفتَّقت عنها العبقريّة الخلدونيّة، فهي توازي في طرافتها ما في النظريَّات اللسانيّة المعاصرة من أفكار، وعلى رأس هذه الأفكار الملكة اللغويّة (اللسانيّة)، التي تُعدُّ عنصراً لغويّاً أساسيّاً في الفكر الخلدونيّ، فهي تعني عنده القدرة على استعمال اللغة الاستعمال الصحيح في شتَّى ظروف التكتُّم أو الكتابة، وليست على كل حال الإلمام المباشر والدقيق بقوانين الإعراب، ومعلوم أنَّ متكلِّم اللغة لا يمكنه أن يتكلَّم اللغة التي هي تنظيم من الرموز، قائمٌ على قواعدَ وتراكيبَ ودِلالاتٍ، وأصواتٍ لغويّة، ما لم يكن ملمَّاً بهذه القواعد، ولا يعني ذلك أنَّه ملمٌّ بصورةٍ مباشرةٍ بهذه القواعد، فهذه القواعد قد اكتسبها خلال نموّه اللغوي

(١) **موسوعة لالاند الفلسفيّة**، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت: منشورات عويدات، (د.ت)، م١، ص٤٠٤.

(٢) دونسيل، جي. ف: **علم النفس**، ترجمة: سعيد أحمد الحكيم، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربيّة)، ط١، ١٩٨٦م، ص٧٤.

(٣) **المرجع نفسه**، ٧٤.

(٤) **المرجع نفسه**، ٧٤.

(٥) **المرجع نفسه**، ٧٤، ٧٥.

الطبيعي، وفي مراحل اكتسابه اللغة[١].

تتمّ عمليّة التكلُّم بصورةٍ مستقلّةٍ عن قواعد اللغة المرسومة، وتتمّ بالذَّات من خلال الملكة اللسانيّة؛ فالملكة اللسانيِّة تفترض الإلمام الضمنيّ بقواعد اللغة، في حين أنَّ معرفةَ قوانين الإعراب لا تعني بالضرورة امتلاكَ الملكة اللسانيّة.

لقد أدرك ابن خلدون بحسِّه العلميّ، أنَّ موضوع علمُ اللغة، هو الملكةُ اللسانيِّة، وأنَّ كلَ إنسانٍ ترعرع في بيئةٍ معيَّنة، فإنَّه يكتسب كفايةً لغويّةً في لغة بيئته، فهو يستطيع أنْ يعبِّرَ في كلِّ لحظة، كما أنَّه يستطيع الحكمَ بأُصوليَّةِ الجملِ بصورةٍ بديهيّة؛ أي أنَّه يستطيعُ أن يحكمُ على الجُملِ أو التراكيب التي يسمعها حين تتوافقُ والقواعدَ الضمنيّة التي يطبِّقها متكلِّم اللغة بصورةٍ لاشعوريّة والكامنة ضمن كفايته اللغويّة[٢]، "وإذا عُرِضَ عليه الكلامُ، حائداً عن أُسلوب العرب وبلاغتهم في نظمِ كلامِهم أَعرض عنه ومجّه" ...، "وهذا أمرٌ وجدانيّ حاصل بممارسةِ كلام العرب، حتَّى يصيرَ كواحدٍ منهم"[٣].

فالمتكلِّم لديه حَدْسٌ لغويٌّ، نابعٌ من ملكته اللسانيِّة، فيحكم بواسطته على جملةٍ ما، إذا كانت من جملِ لغته الأُصوليّةِ، أمْ لا[٤]، ذلك أنَّ ابنَ اللغةِ يصدر عن لغته صدوراً غيرَ واعٍ.

ويرتبط مفهومُ الملكةِ اللغويِّةِ ارتباطاً مباشراً بالمواضعةِ اللغويّة، التي تنبئ عن عَقْد اجتماعي يؤمِّن سلامة الاتِّصال بين الباثّ والمتلقِّي.

ويتعلَّق بهذا المفهوم (الملكة اللغويّة) ظاهرة الاكتساب، التي تثير كثيراً من التساؤلات، ولا سيما في تناول العربيّة، ليس تنظيراً أو تحديداً لقوانينها، وإنَّما كمهارةٍ للاتِّصال، فقد استطاع ابن خلدون، أنْ يعرضَ مخطَّطاً لتناول اللغة، جعل أساسَه الحدثَ الكلامي (Act of Speech)، وليس الكلمةَ كما كان الحال عند دي سوسير، ولا الجملة كما هو الأمر عند تشومسكي[٥].

إنَّ هذا الفَهْمَ، قد يكون لنا عوناً في مستوى من العربيّة، يُجمع عليه أهلُ اللغةِ في اختيارٍ يرتبط بالأُصول، ويتمثَّل التطوُّر، ليفيَ بحاجةِ أبناءِ العربيّة، وليقدِّمها بصورةٍ مقبولةٍ لمن يرومُها من غير النَّاطقين بها، ولنا في تجاربِ الأُمم في لغاتهم أُسوة.

---

(١) زكريا، ميشال: **الملكة اللسانيّة في مقدِّمة ابن خلدون**، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٦م، ص٢٥.

(٢) زكريا، ميشال: **الملكة اللسانيّة في مقدِّمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٣) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمّد: **المقدِّمة**، تحقيق: علي عبدالواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٣، (د.ت)، ١٢٩٠/٣.

(٤) زكريا، ميشال: **الملكة اللسانيّة في مقدِّمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ٤٨.

(٥) الراجحي، عبده: **اللغة وعلوم المجتمع**، بيروت: دار النهضة العربية، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٢.

مفهوم الملكة اللغويّة عند ابن خلدون:

عرفنا أنَّ الملكة بمعناها العام، هي القدرة على عمل أو التصرُّف بـه، بحـذقٍ، وبـصورةٍ تلقائيّة، بعد أن تستولي عليه النَّفس، فيحصل من جرَّاءِ ذلك الاتّصاف والتحقيق. وهـي عنـد ابـن خلدون لا تخرج عن هذا المعنى العام، إلاَّ أنَّها قد خُصِّصتْ بالوصف، فهي ملكة لسانيّة (لغويّة).

واللغة في عُرْفهِ جملة اصطلاحات الأُمة، بعد أن تحدِّد بكونها عبارة المتكلِّم عن مقـصوده، بفعل لساني يصير ملكة متقرِّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان[١]. لكنَّ هذه اللغة تقتضي قوانين تسيِّرها وتحفظ انتظامها، غير أنَّ استعمال اللغة لا يتوقَّف على معرفةٍ واعيةٍ لتلك القوانين، فالحدث الكلامي، يكتسب تلقائيّاً عن طريق التحصيل بالأُمومة؛ أي محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة، على حدِّ عبارة ابن خلدون[٢]. ولكنَّ هذا الاكتساب الأُمومي سرعان ما يتحوَّل إلى ضـربٍ مـن الإدراكِ الخفـيِّ لقوانين تلك اللغة، ذلك أنَّ الظاهرة اللسانيّة من شروطها الأوليّة، أنَّها عَقْدٌ جماعي يلتزم بـه الفـرد ضمنيَّاً بعد أن يحذق استخدام ما تنصّ عليه بنوده الصوتيّة والنحويّة والمعجميّة والدِلاليّة[٣]. وهذا لا يمنع أن تُحصَّل الملكة بالعلم والتعليم، والإلقاء، غيـر أنَّ حـصول الملكـات عـن المباشـرة (أي الاكتساب بالمحاكاة والتلقين) أشدّ، استحكاماً، وأقوى رسوخاً[٤].

إنَّ الملكة اللسانيّة (اللغويّة) اصطلاح خلدونيّ، مع أنَّنا نجده في الفكر اللساني العربيّ عنـد أصحاب النظر العام، غير النحاة، وتتردَّد أحياناً على ألسنة النحاة*، ويُقصد به قدرة اللـسان علـى التحكُّم في اللغة والتصرُّف فيها، وهو ما يوافق ما أجمعت على تفسيره المعاجم، فهي تعني (الملكة) احتواء الشيء مع الاستبداد به، لكنَّها هنا (ملكة لسانيّة)، فهي منسوبة إلى اللسان، الذي هو محلّهـا، وتصير ملكة له، إذا احتوى اللغة وتمكَّن منها واستبدَّ بها[٥].

وهي بهذا الفهم أساس كل دراسات اللسان العربي[٦]، فهي تفسِّرُ لنا كثيـراً مـن القـضايا اللغويّة، من مثل: الاكتساب اللغوي والاختيار، والمستويات اللغويّة... وغيرها من القـضايا التـي تحتاج إلى حلولٍ غير تقليديّة في المشكلة اللغويّة.

---

(١) المقدِّمة، ١٢٦٤/٣.

(٢) المرجع نفسه، ١٢٥٥/٣.

(٣) المسدي، عبدالسلام: **اللسانيَّات وأُسسها المعرفيّة**، تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر: المؤسسة الوطنيـة للكتـاب، ١٩٨٦م، ص٣١.

(٤) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٢٥٥/٣.

* انظر الموسى، نهاد: **مقدِّمة النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث**، هامش (٥٢).

(٥) عيد، محمّد: **الملكة اللسانيّة في نظر ابن خلدون**، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٩م، (التقديم).

(٦) **المرجع نفسه**.

لقد استطاع ابن خلدون بنظرة شموليّة أن يميِّزَ بين الملكة وصناعة العربيّة، وهذا مدخلٌ موفَّق في معالجة مسألة الاكتساب؛ لأنَّ المعرفة لا تصنع مهارة، فهو يقول[١]: "ذلك أنَّ صناعة العربيّة، إنَّما هي معرفة قوانين هذه الملكة، ومقاييسها خاصة، فهو علمٍ بكيفيّة، فليست نفس الملكة، وإنَّما هي بمثابةِ من يعرفَ صناعة من الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً (...)، ويقول[٢]: "وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإنَّ العلم بقوانين الإعراب، إنَّما هو علم بكيفيّة العمل وليس هو نفس العمل (...)، فمن هذا تعلم أنَّ تلك الملكة هي غير صناعة العربيّة، وأنَّها مستغنية عنها بالجملة".،

لقد نفذ ابن خلدون بحسِّه اللغوي الفذّ إلى التمييز بين (المهارة اللغويّة) و(المعرفة اللغويّة، وهو في هذا التمييز، يبني تصوُّراً لغويّاً نافعاً في اكتساب اللغة، ولا سيما في بناء (المحتوى اللغوي)؛ فالحديث عن بنية اللغة من حيث: الأصوات وأبنية المفردات، وأنماط الجمل...، يؤدِّي في أحسنِ الأحوال إلى معرفة علميَّة باللغة، ولكنَّه لا يؤدِّي بالضرورة إلى مهارات لغوية[٣].

إنَّ الرؤية الخلدونيّة اللغويّة، تقرُّ أنَّ (المهارة)، لا يمكن أن تكتسب من طريق المعرفة اللغويّة[٤]. وإنْ كانت هذه المعرفة تُساعد أوْ تخدم تلك المهارة.

وقد أدَّت المبالغة في المعرفة اللغويّة، ولا سيما في عرض قواعد النحو وتركيزها، وعدم العناية بتنمية المهارات اللغويّة والاقتصار على التحليل الإعرابي حول تعليم اللغة إلى معرفة نظريّة، وفي هذا يقول ابن خلدون: "فأصبحت صناعة العربيّة كأنَّها جملةٍ من قوانين المنطق العقليّة أو الجدل وبعُدَتْ عن مناحي اللسان وملكته... وتلك القوانين، إنَّما هي وسائل للتعليم، ولكنَّهم أجبروها على غير ما قصد بها، وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها"[٥].

وهكذا كان التركيز على "صنعة الإعراب"، وبدأ تصوُّر خاطئٌ يخلط بين الكفاءة اللغويّة، التي تُعدُّ ركناً أساسيَّاً في التكوين العلمي للمتعلِّم، وصنعة الإعراب، التي يُعنى بها المتخصِّصون في علوم اللغة[٦].

---

(١) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٢٨٦/٣.

(٢) **المرجع نفسه**، ١٢٨٧/٣.

(٣) حجازي، محمود فهمي: **النظريات الحديثة في علم اللغة وتطبيقاتها في تعليم العربية على المستوى الجامعي**، دمشق: مجلة التعريب، ع٤، ١٩٩٢م، ص٦٥.

(٤) عمر، أحمد مختار: **أزمة اللغة العربية المعاصرة**، والحاجة إلى حلول غير تقليديّة، (سلسلة كتاب قضايا فكرية)، القاهرة: الكتاب السابع والثامن عشر، مايو ١٩٩٧م، ص٦٩، ص٧٠.

(٥) **المقدِّمة**: ١٢٨٨/٣.

(٦) حجازي، محمود فهمي: **النظريات الحديثة في علم اللغة**، ص٦٧.

أولاً: مفهوم الملكة والمواضعة اللغويّة.

يرتبط مفهوم الملكة اللغويّة في موروث الحضارة العربيّة، بنظرية المواضعة اللغويّة، وظاهرة الاكتساب اللغويّ، ويتجلَّى هذا الفهم عند أصحاب النظر العام، وعلى رأسهم ابن خلدون، فكيف تناول هذا المشكل على ضوء علاقته بهذين المعطيين.

تناول الفلاسفة والمفكِّرون القدماء علاقة اللفظ بدلالته من وجهاتٍ مختلفة، غير أنَّها تتشعَّب إلى شعبتين أساسيتين:

الأولى: علاقة الارتباط الطبيعي؛ أي أنَّ لفظاً معيَّناً يُثير معنى معيّناً، أو أنَّ المسمَّى يوحي بسر اختيار الاسم له.

الثانية: علاقة مصطنعة؛ أي أنَّ الإنسان هو الذي يفرضها بإرادته، ويحكم طول ملابسة اللفظ للدلالة، فينشأ ما يُشبه التلازم بينهما(١).

وقد بقيت هذه العلاقة، التي أثارت هذا الخلاف منذ فلاسفة ما قبل الميلاد حتّى زماننا هذا، قضيّة أوليّة في فلسفة علم الدِلالة، تُثير سلسلة من التفسيرات المتناقضة، يقول ستيفن أولمان(٢): "منذ بداية الفلسفة الغربيّة، وربَّما قبل ذلك بكثير، والعلاقات بين اللغة والحقيقة، هي المشكلة الأولى في فلسفة علم الدِلالة، ولقد أثارت سلسلة من التفسيرات المتناقضة".

لقد نظر فندريس إلى مسألة أصل الكلام، على أنَّها ليست من مسائل علم اللغة، فهو يقلو(٣): "إنَّ مسألة أصل الكلام، ليست من سائل علم اللغة (...)، فغالبيّة أولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام منذ مئة عام يهيمون في تيهٍ من الضَّلال؛ لأنَّهم لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة".

إنَّ هذه الرؤية لمسألة أصل الكلام، قد دفعت كثيراً من المحدثين إلى تجنُّب علاجها، فهي تضرب في طرق مسدودة كما يشعرون(٤).

إنَّ اللغة نظام من المواضعات، وهو نظام علامي مفيد، وقيمة الرَّمز اللغويّ فيه كما يقول ماريو باي(٥): "لا تتعدَّى تقبُّل المجتمع له، واتفاقه على استعماله، ولو غيَّر المجتمع رأْيه، لتغيَّرت تبعاً لذلك قيمة هذا الرَّمز، أوْ فَقَدَ هذه القيمة كُليّة".

بل إنَّ القيمة التي يدلُّ عليها الرَّمز اللغويّ، تتمّ بطريق التحكُّم والفرض، وأنَّه ليس هناك

---

(١) مندور، مصطفى: **اللغة بين العقل والمغامرة**، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٤م، ص٤٢.

(٢) Ullmann: **The Principles of Semantics**, p. 66, Oxford, 1957.

(٣) فندريس: **اللغة**، تعريب: عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م، ص٢٩.

(٤) مندور، مصطفى: **اللغة بين العقل والمغامرة**، هامش (٩٩).

(٥) باي، ماريو: **لغات البشر**؛ أُصولها وطبيعتها وتطوّرها، القاهرة، قسم النشر بالجامعة الأمريكيّة، ١٩٧٠م، ص٢٢.

أي رابطة فطريّة بين اللفظ ومدلوله[١].

وتعتمد المواضعة على القصد والوعي بما يتمّ التواضع عليه[٢]، والقصد هو القانون الداخلي في صلب المواضعة اللغويّة، الذي يحدِّد نوعيّة أجناس الخطاب، وهو العنصر الرَّابط بين اللغة والمواضعة، من خبرٍ أوْ أمرٍ أو استخبار، فيتحوَّل بالصياغة اللسانيّة من الوظيفة الإبلاغيّة إلى الوظيفة الاقتضائيّة، كما في الأمر والنهي والطلب[٣].

فنظرية المواضعة، أو قانونها، هو المولِّد الحركيّ لكل ضروب الكلام في أجناسه، ودِلالته، وعلائق تركيبه[٤]. وهذا يعني كما يقول ماريو باي[٥]: أنَّ "اللغة (...) تعتمد على الاصطلاح، والاتِّفاق الجماعيّ بين أعضاء الجماعة اللغويّة، على المعنى، أو المعاني المعيّنة التي تستدعيها أصوات خاصة".

ولكنَّ الغرض الأساسي من المواضعة، "ليس مجرَّد أن تصبح الألفاظ رموزاً، أو علاماتٍ على أشياء (...) وإنَّما الهدف الأصلي من وضع المفردات لمسمَّياتها، هو أن يضمّ بعضها إلى بعض، لتتأتَّى الفائدة المركَّبة، وهذا شيء يعمّ جميع المفردات مع ما يتركَّب منها"[٦].

فالألفاظ المفردة – التي هي أوضاع اللغة – لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، كما يقول عبدالقاهر الجرجانيّ، ولكن لكي يضمّ بعضها إلى بعض، فيعرف ما بينها من فوائد[٧].

وقد عَدَّ المسدِّي (المواضعة) دعامة الانتظام الإبلاغي، والنظريّة المحوريّة في اللغة؛ من حيث هي تشكِّل دائمٌ ومخاضٌ مستمر[٨].

ولا شكَّ أنَّ المواضعة قائمة على مبدأ العَقْد اللغويّ، وهو ملزم للجميع، في المجتمع اللغويّ المتجانس، في جدوليه: الجدول الدِلالي المستمد من معاني الألفاظ مجرَّدة (محور الاستبدال)؛ المستند إلى الرصيد المعجمي، والجدول النظمي المجسَّم لدخول الألفاظ في سياق التركيب، وهو ما يجعل القانون معمَّماً على مبدأ الاستبدال ومبدأ التراكن في اللغة[٩].

---

(١) باي، ماريو: **أُسس علم اللغة**، ترجمة: أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، ط٣، ١٩٨٣م، ص٤١.

(٢) عبداللطيف، محمّد: **العلامة والعلاميّة**؛ دراسة في اللغة والأدب، القاهرة – بيروت: الوطن العربي للنشر والتوزيع، (د.ت)، ص٢٣.

(٣) المسدي، عبدالسلام: **اللسانيَّات وأُسسها المعرفيّة**، مرجع سابق، ١٤٦.

(٤) المرجع نفسه، ١٢٨.

(٥) باي، ماريو: **أُسس علم اللغة**، مرجع سابق، ٤٠.

(٦) عبدالمطلب، محمّد: **العلامة والعلاميّة**، مرجع سابق ، ٢٥.

(٧) المرجع نفسه، ٢٦.

(٨) المسدي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربيّة**، ٢٥.

(٩) المسدِّي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربيّة**، مرجع سابق، ص١٦.

ويتجلَّى فهم السَّامع لمحتوى رسالة المتكلِّم، باهتدائه إلى نسيج المواضعة، التي تألف عليها الكلام، فليس الكلام سوى "مقول" محيل على "متصوَّر"، يرجع بدوره إلى "واقع" مؤلِّف ضرباً من التركيب. وبانعدام المواضعة يرتفع العَقْد الجماعيّ بين أفراد المجموعة اللسانيّة الواحدة(١).

فعلى الصعيد النظريّ، لا يوجد اختصاص ما قبلي بين أي إنسان من البشر مع أيِّ لغةٍ من اللغات، فالإنسان متكلِّم – بالقوة – بكل اللغات، بل بما لانهاية له من اللغات، وما يخرج تكلمه بها من حيِّز القوة إلى حيِّز الفعل، هو إدراك مواضعاتها(٢).

وعليه، فإنَّ العالم اللغوي فندريس ينفي نفياً قاطعاً، بل يستغرب ترتيب العلاقة بين اللغة والجنس، يقول(٣): "فكرة الرَّبط بين اللغة والجنس (...) لا شيء أشدّ غرابة على القارئ من هذا الترتيب".

وهو يدعو إلى عدم الخلد بين الفكرتين، يقول(٤): "لا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضروريّة بين هاتين الفكرتين، إذْ لا ينبغي الخلط بين المميّزات الجنسيّة المختلفة، التي لا يمكن تحصيلها إلاّ بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة، التي تعدُّ أعياناً قابلة للنقل، تعار وتتبادل".

بل إنَّه يَعدُّ أيَّة محاولة للتوحيد بينهما، عبث لا طائل تحته(٥)، "فكل محاولة تعمل للتوحيد بين اللغة والجنس، عبث لا طائل تحته".

تبرز نظرية "المواضعة اللغويّة" في فكر ابن خلدون، بصورةٍ تدلّ على فهم واعٍ للظاهرة اللغويّة بصورةٍ عامة، فاللغة بناءً على المواضعة، تنحلّ إلى شبكة من المواضعات النوعيّة، فيكون ناموسها (اللغة)، منصهراً في قانون المواضعة الكلي(٦).

إذاً المواضعة، جملة من القوانين المرتَّبة لبناء اللغة في نسيج دوالِّها. "لأنَّ الذي في اللسان والنّطق، إنَّما هو الألفاظ، وأمَّا المعاني، فهي في الضمائر موجودة عند كل واحدٍ وفي طوع كل فكر"(٧).

إنَّ تأليف الكلام للعبارة من المعاني، محتاجٌ للقوالب التي تفرزها المواضعة اللغويّة(٨). وهذا

(١) **المرجع نفسه**، ص١٤١.
(٢) **المرجع نفسه**، ص١٤٢.
(٣) فندريس: **اللغة**، مرجع سابق، ص٢٩٧.
(٤) فندريس: **اللغة**، مرجع سابق، ص٢٩٨.
(٥) **المرجع نفسه**، ٢٩٨.
(٦) المسدي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربيّة**، مرجع سابق ، ص١٢٨.
(٧) **المقدّمة**، مرجع سابق ١٣١٢/٣.
(٨) المسدي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، مرجع سابق، ص٢١٦.

يعني انتفاء البرهان العقلي على مواضعات الكلام، وهو ما عناهُ ابن خلدون بقوله[١]: "إنَّ اللغة لا تثبت قياساً".

لقد اهتدى صاحب المقدِّمة إلى أنَّ اللغة مثالاتٌ مجرَّدةٌ تقوم مقام المنوال أو القالب أو الأُسلوب[٢]، ثمَّ يأتي اكتساب الكلام لجملةٍ منوالاته المؤكَّدة له، وبالاعتياد والتكرار والممارسة يتجرَّد في ذهنه من جملة هذه القوالب، قالب كليّ مطلق[٣] يحذو حذوه في التأليف.

الملكة اللغويّة وظاهرة الاكتساب:

إنَّ أوَّل مراتب قضية الاكتساب، من الوجهة الدراسيّة العامّة، أنَّه تعلُّم مباشر لمواضعات اللغة. بحيث يصبح ممارسة لتلقين اللغة، فهو مواضعة لنواميس الكلام مستخرجة من ذاته[٤].

يرتبط تعليم اللغات كثيراً بظاهرة الاكتساب، بل إنَّ "كوردر" عَدَّ تعليمها فنّاً[٥]؛ أي أنَّه نشاط عمليّ يقتضي مِراناً عالياً، يكتسب بالدُّربة المتواصلة، وقد يتداخل مفهوم الفنّ بالعلم، غير أنَّه إذا كانت معرفتنا بالعوامل الضابطة لهذا النشاط ناقصة، فيتعيَّن تحاشي الإجراءات الجازمة بغية درسِ مَنْ يمارس النشاط في خبراته؛ لأنَّ تعليم اللغات يتضمَّن معايير مختلفة؛ أي أنَّها ليست من الثوابت في شيءٍ، فلا يُستطاع سبر قيمها، ولو أَلَمَّ الإنسان بها[٦].

إنَّ أوَّل مراتب قضية الاكتساب، من الوجهة الدراسيّة العامّة، أنَّه تعلُّم مباشر لمواضعات اللغة[٧]، بحيث يصبح ممارسة لتلقين اللغة؛ لكونه مواضعة لنواميس الكلام مستخرجة من ذاته[٨]. وهذا ما يخرج اللغة من وظيفتها المرجعيّة؛ أي التبليغيّة إلى وظيفة ما وراء اللغة؛ أي الحديث عن اللغة باللغة. وهذه الوظيفة هي المرتبة الثانية، فيرتقي الإنسان من ممارسة تلقين اللغة فعليّاً إلى وصف عملية التعليم وطرقه، حيث يتحوَّل دور عالم اللغة من فاحصٍ لتحوُّل اللغة من أداة خطاب أولاً إلى أداة تلقين (مواضعةٍ) الخطاب ثانياً، فإذا به يصوغ ملاحظته الاختبارية من لغةٍ تصبح

(١) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٠٦٣/٣.

(٢) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٢٩٩، ١٣٠١، ١٣٠٣.

(٣) **المرجع نفسه**، ص١٣٠٤.

(٤) المسدي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، مرجع سابق، ص٢١٣.

(٥) **مدخل إلى اللغويات التطبيقيّة**، ترجمة جمال صبري، الرباط: اللسان العربي، مج١٤، ج١، ١٩٧٦، ص٦٤-٧٦.

(٦) المسدي، عبدالسلام: **اللسانيات وأُسسها المعرفيّة**، تونس: الدار التونسيّة للنشر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦م، ص١٣٦.

(٧) المسدي، عبدالسلام: **اللسانيات وأسسها المعرفية**، مرجع سابق ، ص١٤٣. وانظر: عبدالسلام، المسدي: **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، مرجع سابق ، ص٢١٣.

(٨) المسدي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، مرجع سابق، ص٢١٣.

كلاماً في الكلام الملقَّن به الكلام[١].

ويأتي أخيراً، تحسُّس المواضعةِ وسنن أنظمتها في اللغة المعنيّة بالدرس[٢].

ولعلَّ أكبر حدث لساني، وهو المتمثِّل في ظهور المدرسة التوليديّة، إنَّما هو ناتج عن موقف مبدئي من موضوع اكتساب اللغة، حيث حصل ذلك حينما انشقّ تشومسكي عن الهيكلين (البنـــويين) [٣]، فعرَّف اللغة بأنَّها ملكة فطريّة تكتسب بالحدث، معتبراً أنَّ صيغها الأوليّة ليس إلاّ مجرَّد قـــادح لشرارة هذه الملكة. في حين يعدُّ الهيكليون اللغة عادة من العادات تكتسب بالمحاكاة والقياس[٤].

ويلاحظ أنَّ الخط الفاصل بين كثيرٍ من مدارس اللسانيّات المعاصرة، يرجع إلـــى اخـــتلاف تحديد اللغة انطلاقاً من معايير اكتساب مواضعاتها[٥].

كان لروَّاد الفكر اللساني العربي، حديثٌ جادٌّ في ظاهرة الاكتساب، ولا سيما علماء النظـــر في المناقطة والفلاسفة وعلماء الاجتماع، فقد استطاعوا أنْ ينفذوا إلى خصائص الظاهرة اللـــسانيّة، بالاعتماد على ملابسات اقتنائها وطرائق تحصيلها.

يقول عبدالسَّلام المسدّي في هذا الشأن[٦]: "إنَّ أول ما يجيبنا به موروث الحضارة العربيـــة في هذه القضية، تحديد اللغة بكونها ملكة، والملكة مفهوم متعدِّد الجوانب، متداخل المقاصد، غير أنَّه ينحصر إجمالاً في القدرة على اكتساب ما لم يكن مكتسباً من التملُّك والحوز".

يأتي ابن خلدون على رأس العلماء الذين ساهموا في الحديث عن مشكل العلاقة بين مفهـــوم الملكية اللغوية، وظاهرة الاكتساب، وكان حديثه هذا فتحاً جديداً في الظاهرة اللغويّة، تتيح لدارســـي اللغة بداية طيِّبة في علاج مشكلاتها.

لقد نفذ ابن خلدون بحسٍّ لسانيّ دقيق إلى مفاعلات الاكتساب اللغوي انطلاقـــاً مـــن فكـــرة الملكة وملابساتها التجريبيّة، وأوَّل ما يتقرَّر لديه[٧]: "أنَّ الملكة في الحـــدث اللـــساني تـــستند إلـــى حصوله كلاً لا يتجزأ؛ أي أنَّ ممارسة الإنسان للغة بالملكة تنفي أن يكون واعيـــاً مفرداتهـــا عـــن

(١) **المرجع نفسه**، ص٢١٣.

(٢) **المرجع نفسه**، ص٢١٣.

(٣) انظر باقر، مرتضى: **نظرات في النحو العربي**، ص١٠٢، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ع١١، ١٩٧٦.

(٤) إبراهيم، زكريا: **مشكلة البنية**، القاهرة: مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، (د.ت)، ص٥٨، ص٥٩. وانظر: سامسون، جعفري: **مدارس اللسانيات**؛ التسابق والتطور؛ ترجمة محمّد زياد كبة، مطابع جامعة الملـــك ســـعود، ١٩٩٤، الفـــصل الثالث؛ الوصفيون (ص٥١-٧٧).

(٥) المسدي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، مرجع سابق، ص٢١٣. وانظر: المسدي، عبدالسلام: **ابـــن خلدون والفكر العربي المعاصر؛ الأسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون**، ص١٤٢.

(٦) المسدّي: **التفكير اللساني**، مرجع سابق ، ص٢١٤.

(٧) المسدِّي: **ابن خلدون والفكر العربي المعاصر**، مرجع سابق، ص١٤١.

تراكيبها".

وعليه، فإنَّ الظاهرة اللغويّة في رأي صاحب المقدِّمة، تلحق الاكتساب عن طريق المنشأ الطبيعي بقوانين الإدراك الشموليّ، حيث يعي الإنسان الكلّ دون أن يكون حتماً قد وعى أجزاءه(١)، فهو يقول(٢): إنَّ اللغة هي عبارة المتكلِّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانيّ، فلا بُدَّ أن تصير ملكة متقرِّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان".

ويعرض ابن خلدون فكرة الملكة بالاعتماد على مستويين(٣):

الأول: فصل أبنية الدوال في الكلام عن أبنية المدلولات.

والثاني: بيان مراتب التعبير إبلاغاً أو إبداعاً.

وهو في هذا يفسِّر كيف تنحصر مواضعات اللغة باعتبارها جملة القوانين المرتَّبة لبنائها في نسيج الدوال اللغويّة؛ لأنَّ الذي في اللسان والنّطق، إنَّما هو الألفاظ، وأمَّا المعاني فهي في الضمائر موجودة عند كل واحدٍ وفي طوع كل فكر"(٤).

وهكذا، يكون تأليف الكلام للعبارة عن المعاني محتاجاً للقوالب التي تفرزها المواضعة اللغويّة(٥).

ويخلص ابن خلدون إلى أنَّ(٦): "الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يُحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه، لفقدان القدرة عليه".

فيكون مفهوم الملكة اللغويّة متطابقاً مع مبدأين، هما(٧):

مبدأ العلم أو المعرفة، ومبدأ القدرة أو الاستطاعة، وبينهما من التفاعل العضوي مثل ما بين الإدراك والتعبير؛ أي مثل ما بين التلقِّي والبث أو التفكيك والتركيب.

لاحظ ابن خلدون أنَّ الدارسين للظاهرة اللغويّة قد خلطوا خلطاً واضحاً بين مفهومي الملكة من جانب، والطَّبع والجبلّة من جانبٍ آخر، بل إنَّهم عدُّوها بدائل لفكرة الملكة، إلاّ أنَّه استطاع

(١) المسدي: **التفكير اللساني**، مرجع سابق، ص٢١٦.

(٢) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٢٦٤/٣.

(٣) المسدي: التفكير اللساني، مرجع سابق، ص٢١٦. وانظر: المسدي: ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص١٣٤، ص١٣٥.

(٤) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٣١٢/٣.

(٥) انظر في **المقدمة**، ١٣٠٣/٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦.

(٦) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٣١٣/٣.

(٧) المسدي: **التفكير اللساني**، مرجع سابق ، ص٢١٦.

بالبحث والاستقراء أن يفصل بينهما، وهو في ذلك يعزل البعد اللغوي الذي تمثّله الظاهرة اللغوية عن مطعيات الجِبِلَّة، من حيث هي الطبيعة الأولى للإنسان[١].

يقول ابن خلدون[٢]: "ولذلك يظنّ كثير من المغفَّلين ممَّن لم يعرف شأن الملكات، أنَّ الصَّواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغةً أمرٌ طبيعي، ويقول كانت العرب تنطق بالطَّبع وليس كذلك، وإنَّما هي ملكة لسانيّة في نظم الكلام تمكَّنت ورسّخت فظهرت في بادئ الرأي أنَّها جِبِلَّة وطبع".

ثمَّ يحتكم ابن خلدون إلى جوهر قضية الاكتساب، ليدعم به رأيه في تمييز الملكة عن الطّبع في شأن اللغة مؤكِّداً[٣] أنَّ: "هذه الملكة إنَّما تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرّره على السَّمع، والتفطُّن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلميّة في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإنَّ هذه القوانين، إنَّما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلّها"[٤].

يتَّخذ ابن خلدون من اللسان محوراً مركزيّاً، إذْ ينسب إليه الاستعداد بالملكة والرياضة وبالصنعة، فهو يجعل مبدأ اجتماع عنصريّ الملكة والصناعة في مفهوم اللغة، وذلك بإدخال محلهما جميعاً وهو اللسان، فيصبح الكلام مهارة مكتسبة بالاستعداد والمران في نفس الوقت[٥].

وقد تنوَّعت عبارة ابن خلدون في وصف اللغة، فهي: "ملكة اللسان"[٦]، وهي "صناعة ذات ملكة"[٧]، وهي "ملكة في اللسان بمنزلة الصناعة"[٨].

قد يكون الاحتكام إلى جوهر قضية الاكتساب اللغوي، بالاهتداء إلى حقيقة الحدث اللساني، الذي هو ملكة تروّض كما تروّض اليدُ على التجارة أو الحِدادة، هو الذي قاد روَّاد أُصول النحو في التراث العربي، إلى التأكيد على أنَّ اللغة مثالات مجرَّدة، تُصاغ بالحدود والقوانين، وعنها يتولَّد بالقياس الكلام المنطوق، والمنجز فعلاً، وفي مفترق القالب والقانون تكمن ركائز الملكة الصناعيّة في أمر اللغة؛ لأنَّ رديف المثالات المجرَّدة، إنَّما هو الاستعداد الماقبلي لصياغتها وصياغة بدائلها،

(١) المسدي: **ابن خلدون والفكر العربي المعاصر**، مرجع سابق ص١٤٢.
(٢) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٢٨٩/٣.
(٣) المسدي: **التفكير اللساني**، مرجع سابق ، ص٢١٧.
(٤) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٢٨٩/٣، ١٢٩٠.
(٥) المسدي: **ابن خلدون والفكر العربي المعاصر**، مرجع سابق ص١٤٣.
(٦) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٣١٣/٣، ١٢٦٣/٣.
(٧) **المرجع نفسه**، ١٢٥٨/٣.
(٨) **المرجع نفسه**، ١٢٩٨/٣.

ولأنَّ القانون اللغوي، هو الممارسة الاختبارية... وهكذا يصبح اكتساب اللغة عمليّة جدليّة بين التلقِّي والإفراز[١].

والتلقِّي عنصرٌ أساس في الاكتساب اللغويّ، حيث يقرِّر ابن خلدون[٢] أنَّ "السمع أبو الملكات اللسانيّة؛ فلسان الإنسان صورة لِلسان من ينشأ بينهم؛ لأنَّه يسمع كلامهم وأساليب مخاطبتهم، وكيفيَّات تعبيرهم عن مقاصدهم ابتداءً بالمفردات في معانيها، وانتهاءً بالتراكيب في انتظام بعضها ببعض[٣]، و"لا يزال سماعهم يتجدَّد في كل لحظة، ومن كل متكلِّم، واستعماله يتكرَّر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة".

إنَّ الأساس المبدئي الذي يصدر عنه ابن خلدون في مفهوم الملكة، هو مبدأ الارتياض بالمعاودة؛ أي أنَّ الحدث الكلامي، هو محصول معادلة الممارسة والتكرار، وهذا هو حدُّ الملكة[٤]. يقول ابن خلدون[٥]: "والملكات، لا تحصل إلاّ بتكرار الأفعال؛ لأنَّ الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذَّات صفة تتكرَّر، فتكون حالاً، ومعنى الحال، أنَّها صفة غير راسخة، ثمّ يزيد التكرار، فتكون ملكة، أي صفة راسخة"[٦].

ويمكن إيضاح فكرة ابن خلدون في الفعل اللساني المفضي إلى الملكة بالخطاطة الآتية:

١- فعل لساني*	صفة الذات
٢- تكرار الفعل	حال (صفة راسخة)
٣- تكرار متزايد	ملكة (صفة راسخة)

إنَّ لحظة عقد الاكتساب، تتحدَّد بحصول القدرة على التصرُّف في التعبير بحسب ما وعاه الإنسان من تراتيب الألفاظ وأساليب النظم. وقد أطلق عليه المسدّي، لحظة التحوُّل من الاختزان إلى الإنجاز بالتصرُّف العفويّ، والابتداء التلقائي[٧]. وهو ما يسمِّيه ابن خلدون: "فَتْق اللسان بالمحاورة والمناظرة"[٨].

(١) المسدي: **التفكير اللساني**، مرجع سابق ، ص٢١٩، ص٢٢٠.
(٢) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٢٦٥/٣.
(٣) المسدّي: **ابن خلدون والفكر المعاصر**، مرجع سابق، ص١٤٣.
(٤) **المقدِّمة**، ١٢٩٧/٣.
(٥) المسدّي: **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، مرجع سابق ، ص٢٦٦.
(٦) **المقدِّمة**، مرجع سابق ١٢٧٩/٣.
* انظر في هذا: زكريا، ميشال: **الملكة اللسانية في مقدِّمة ابن خلدون**، مرجع سابق ، ص٧١.
(٧) المسدّي: **ابن خلدون والفكر المعاصر**، مرجع سابق ، ص١٤٤.
(٨) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٠٢١/٣.

وممّا يذكر لصاحب المقدِّمة في الجانب النظريّ، اهتداؤه إلى تحديد اللغة بأنَّها مثالات تقوم مقام المنوال أو القالب أو الأسلوب[١]، "لأنَّ مؤلِّف الكلام هو كالبنَّاء، أو النسَّاج، والصورة الذهنيّة المنطبقة كالقالب الذي يُبنى فيه، أو المنوال الذي ينسجُ عليه"[٢].

إنَّ ملكة اللسان، رهينة بالمعاودة المفضية إلى ارتسام المنوال الذي نسجت عليه مواضعات اللغة في مخيِّلة المتعلِّم، فهو في خطابه ينسجُ من حيث يشعر، أوْ لا يشعر على منوال سُننها[٣].

فإنْ تلقَّاه وحفظه عند الاستعمال والاختبار، وإنْ ذهب رسمه الحرفي الظاهر من الذاكرة، "فقد تكيَّفْتْ النَّفس به حتّى انتقش الأُسلوب فيها كأنَّه منوال يأخذ بالنَّسج عليه"[٤].

ثمَّ يأتي ابن خلدون على العلاقة الجدليّة بين ملكة اللسان وصناعته؛ أي تميُّز علم الشيء عن موضوع العلم يه، يقول[٥]: "إنَّ ملكة هذا اللسان غير صناعة العربيّة، ومستغنية عنها في التعليم، والسبب في ذلك إنَّ صناعة العربيّة، إنَّما هي معرفة قوانين هذه الملكة، ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفيّة لا نفس كيفيّة، فليست نفس الملكة، وإنَّما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً (...)، وهكذا العلم بقوانين الأعراب مع هذه الملكة في نفسها...".

الملكة اللغويّة عند ابن خلدون والدَّرس اللسانيّ الحديث:

لم نرد من هذا الجزء، الذي نتناول فيه الملكة اللغويّة عند ابن خلدون ومقابلتها بما في الدرس الحديث من مفاهيم، أنْ نَحْمل هذا المفهوم قسراً على ما في النظريات الغربيّة من مفاهيم، هي وليدة ظروف مغايرة تماماً لمنهج الدرس اللغويّ العربيّ، ولكنَّنا نحاول أنْ نعرض لهذا المفهوم، الذي عُرِف في هذين المنهجين، بتحديد ملامحه في كليهما، مع التقدير ابتداءً أنّه في كل منهج ألصق ما يكون بإطاره الفكريّ الذي نشأ فيه.

للغة جانبان من الوجود، هما[٦]:

وجود بالقوة (Potential)، أو ما يُعرف بالطاقة الكامنة، أو القدرة، وهذه يحكمها القانون اللغويّ.

---

(١) المسدّي: **التفكير اللساني**، مرجع سابق ، ص٢١٩.

(٢) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٣٠٣/٣.

(٣) المسدّي: **التفكير اللساني**، مرجع سابق ، ص٢٢٧.

(٤) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٣٠٦/٣، ١٣٠٧. وانظر: المسدي: **التفكير اللغوي في الحضارة العربية**، مرجع سابق، ص٢٢٧.

(٥) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٢٨٦/٣، ١٢٨٧.

(٦) بشر، كمال: **اللغة العربيّة بين الوهم وسوء الفهم**، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ١٩٩٩م، ص٩٣.

والآخر: وجود بالفعل (Actual)، أي: الطاقة المنجزة، أو الأداء الفرديّ، وهذه يحكمها الممارسة الاختباريّة.

تبدأ الرسالة اللغويّة بنطق الكلمات والجمل والعبارات، وهي مشحونة بالعلاقات، والخواص التركيبيّة، التي تمثِّل القوانين الضابطة لتأليف الكلام، وهي المعروفة بقواعد اللغة المعيّنة التي تستخلص من الأحداث المنطوقة، وتنطبع في الذهن وتستقرّ فيه فتترك استعداداً للتأليف، فيما يجدُّ من أحداث فعليّة منطوقة[١]، لا على منوالها فحسب، بل بصور نطقية جديدة، لم يكن منها نُسَخٌ جاهزة من قبل؛ لأنَّ الكلام توليد، لا ترديد، فالنشاط اللغويّ الخلاَّق، يعتبر أحد أهم خصائص التمكُّن اللغويّ[٢].

وهذا يعني أنَّ الصور النطقيّة، والقواعد التركيبيّة المخزونة في الذهن، هي التي تمثّل جانب اللغة الموجودة بالقوة، وأنَّ الأحداث المنطوقة المسموعة، تعني الجانب الموجود بالفعل، والعلاقة بين الجانبين علاقة أساسيّة، فلا وجود لأحدهما دون وجود الآخر، وإنْ كان الموجود بالفعل أسبق من صاحبه، وهو الجانب الفعَّال الذي يمنح الجانب الأول (الجانب العقليّ، أو القواعد المخزونة في الذِّهن) وجوده ومادّته[٣].

يلاحظ أنَّ ابن خلدون قد قدَّم الجانب الموجود بالفعل؛ أي الأحداث اللغوية (المنطوقة) على الجانب الآخر (المخزونات العقليّة)؛ وذلك لأنَّه المصدر الذي يستمدُّ منه الجانب الثاني حقيقته، وقد أشار ابن خلدون في غير ما موضع من مقدّمته إلى أهمية الجانب الأول[٤].

ففي إصلاح الموجود بالفعل إصلاح للموجود بالقوّة، وفي إصلاح الموجود بالقوة، تفعيل لدوره في إصلاح الموجود بالفعل، فكيفما يؤدِّ الكلام ويسمع، يكن حال المخزون في الذهن صحة وخطأ[٥] ....، فهو كما يقول ابن خلدون: السمع أبو الملكات اللسانيّة[٦].

ومعنى ذلك، أنَّ السامع يتكلّم بناء على ما اختزنه في ذهنه، ممّا اكتسبه من نُظُم البنية اللغويّة التي يعيش فيها، فهو يتكلَّم بحسب العُرف والعادة للغة المجتمع الذي يعيش فيه، تلك التي اكتسبها

(١) **المرجع نفسه**، ص٩٤.

(٢) عياشي، منذر: **اللسانية والتنظير**، بيروت: معهد الإنماء العربي، ع٤٣، ١٩٨٦م، ص٢٣٥.

(٣) بشر، كمال: **اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم**، مرجع سابق ، ص٩٤.

(٤) انظر **المقدِّمة**: ١٢٤٢/٣، ١٢٤٤، ١٢٥٢، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٧٨، ١٢٨٩، ١٢٩٣، ١٣٠٣، ١٣٠٤ ... الخ، طبعة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة – القاهرة، ط٣.

(٥) بشر، كمال: **اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم**، مرجع سابق ، ص٩٥.

(٦) **المقدِّمة**، مرجع سابق، ١٢٦٥/٣.

بتدريب الملكة اللسانيّة وتعوّدها[١]. فالأساليب الذهنيّة التي تصير كالقوالب، إنّما يحصّلها الملقّي من حفظ أشعار العرب وكلامهم، وهي تَحْدُثُ عنده من النظر الطويل في هذين الفنّين[٢].

كان ينظر إلى "اللغة" قبل الخمسينيات من القرن العشرين، على أنَّها نوع من أنواع السلوك ليس فيه إلاّ ما نجده في ظاهره، وأنَّ تعلُّمها يجري كما يجري تعلُّم أنواع السلوك الأخرى، فلما ظهرت مدرسة القواعد التوليديّة على يد (تشومسكي)، أحدثت من التغيير ما يشبه الثورة[٣]، من مثل: أساليب البحث اللساني ومناهجه، والمنطلقات النظرية التي يتأسَّس عليها، وما تبع ذلك من إعادة تعريف لموضوعه –اللغة البشريّة والنظريّة اللسانيّة – ولعلَّ أهم تغيير أحدثته هذه المدرسة الأُسس الفلسفيّة التي يتأسس عليها البحث اللساني، فقد نظرت إلى اللغة كنظام معرفي عقلي، لا يكفي لمعرفته وصف ما يظهر منه، بل لا بدَّ أن تتعدَّى دراسته ذلك إلى تفسير طبيعته واكتسابه، واستخدامه ضمن ما تفرضه حدود العقل البشري عليه، وعلى غيره من النظم المعرفيّة أولاً، وضمن الصفات الخاصة بهذا النظام تحديداً، وهي السمات التي تسم حدوده ومبادئه ممّا يسم كل اللغات البشرية[٤].

بل إنَّ تشومسكي كان يرى أنَّ هدف الدرس اللساني، يتمثَّل ببناء نظرية للغة الإنسانيّة – وهذا ما يجعل من هذا الدرس علماً – نظرية تفسِّر الظاهرة التي يتصدَّى لها[٥].

وفي سبيل التعريف (بالمعرفة اللغويّة)، فرَّق تشومسكي بين النظام الداخلي؛ أي القدرات القواعديّة، أو النظام الشكلي اللغوي، وبين الجوانب الأخرى من الظاهرة اللغويّة، تلك التي تأتي نتيجة تداخل اللغة بغيرها من مجالات المعرفة؛ أي مجالات أو جوانب السلوك اللغوي أو الأداء اللغوي، وهو الذي يمثِّل الاستعمال[٦].

وهذا يعني أنَّه في سبيل الوصول إلى فهم الأداء اللغويّ، لا بُدَّ أن نبتدئ أولاً بفهم ذلك الجزء المهم، وهو فهم القابليّة اللغويّة؛ أي المعرفة الضمنيّة بنظام لغتنا القواعدي[٧].

عرَّف تشومسكي القابليّة اللغويّة بأنَّها ملكة تكتسب بالحدس، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلَّم باللغة إلاّ إذا سمع صيغها الأوليّة في نشأته، فإنَّ سماع تلك الصيغ ليس هو الذي يخلق القدرة

(١) عيد، محمّد: **الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون**، مرجع سابق ، ص٣١.

(٢) **المرجع نفسه**، ص٥٩.

(٣) سامسون، جفري: **مدارس اللسانيّات**؛ التسابق والتطوُّر، مرجع سابق، ص١٣٥.

(٤) باقر، مرتضى: **مقدِّمة في نظرية القواعد التوليديّة**، عمان: دار الشروق، ٢٠٠٢م، ص٩.

(٥) **المرجع نفسه**، ص١، ص٩.

(٦) **المرجع نفسه**، ص٢٦.

(٧) باقر، مرتضى: **مقدمة في نظرية القواعد التوليديّة**، مرجع سابق ، ص٢٨.

اللغويّة في الإنسان وإنَّما يقدح شرارتها فحسب[١].

ويذكر مازن الوعر أنَّ تشومسي عَرَّفَ النحو في بداية كتابه البُنى النحويّة، بأنّه[٢]: "جهاز من نوع خاص مصمَّم لإنتاج الجُمَل في اللغة"، وقد علَّق على ذلك قائلاً: "ومن سوء الحظ أنَّ تشومسكي استخدم كلمة ينتج (Produce) ممَّا يحمل على الاعتقاد دون شكّ بأنَّ بنية اللغة النحويّة توصف من وجهة نظر المتكلِّم وليس المستمع".

كان غرض تشومسكي الانتقال بالدرس اللسانيّ من دراسة السلوك اللغوي الفعلي، أو المحتمل، ونتاج ذلك السلوك، إلى دراسة نظام المعرفة الذي يتأسَّس عليه استخدام اللغة وفهمها، ومن هذا إلى دراسة الموهبة الداخليّة التي وهبها البشر، التي تجعل توفّرهم على هذه المعرفة أمراً ممكناً[٣].

إنَّ الطفل يُولد معه عموميَّات تشكِّل حدود وخصائص ملكة اللغة البشريّة في حالتها الأولى (ح صفر)؛ أي حالة القواعد الكليّة* (Universal Grammar)، أمَّا ما تختلف به لغة بشرية عن أخرى، فهو الذي يتعلَّمه الطفل في سني اكتسابه للغة، حيث يبني شكلاً أكثر تحديداً لهذا النظام، وبمواجهة الطفل للغة – يستمر تغيُّر حالات ملكة اللغة حتّى تصل إلى مرحلة تكون فيها في حالة استقرار أو حالة نضج؛ أي (ح ق)[٤].

ويرى تشومسكي، أنَّ اكتساب اللغة لا يكون مجرَّد تعلُّم ن طريق محاكاة الطفل لِمَا يتلقاه من تلك المادة اللغويّة[٥]. فالنشاط اللغوي لا يقوم على الترديد، بل هو نشاط "خلاَّق"، وهو أحد أهم خصائص التمكُّن اللغوي، بل هو أهمّها على الإطلاق[٦].

الخاتمة:

أصبح تعلُّم اللغات الطبيعيّة أمراً ضروريَّاً، نتيجة تداخل المعارف، والتقاء الحضارات، حيث عمدت بعض الدول إلى تسويق لغاتها، بعد أنْ أجرت تخطيطاً محكماً، في ظلِّ تولُّد علم اللغة التطبيقي (Applied Linguistics) في الخمسينيات من القرن العشرين.

(١) المسدّي، عبدالسلام: **التفكير اللساني في الحضارة العربيّة**، مرجع سابق، ص٢٠.

(٢) الوعر، مازن: تشومسكي، **اللسان العربي**، ع٣١، ١٩٨٨، ص١٦٦.

(٣) باقر، مرتضى: **مقدِّمة في نظرية القواعد التوليديّة**، مرجع سابق، ص٣٠.

* وهي مجموع الخصائص العامة التي تحدِّد اللغات البشريّة، التي تُعرف ما هو هذا النظام المعرفي الذي يُدعى لغة. انظر: باقر، مرتضى: **مقدمة في نظرية القواعد التوليديّة**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٤) باقر، مرتضى: **مقدِّمة في نظرية القواعد التوليديّة**، مرجع سابق، ص٤٩.

(٥) **المرجع نفسه**، ص٤٧.

(٦) عياشي، منذر: **اللسانية والتنظير**، مرجع سابق، ص٢٣٥.

ولا شكَّ أنَّ المشكلة اللغويّة في البلاد العربيّة تحتاج إلى ثمرة هذا العلم في تقديم رؤية واضحة لبناء لغوي محكم، تأتي ظاهرة الاكتساب اللغويّ فيه من أولوياته، حيث يعمد إلى اختيار لغوي لاصطناع (مُناخ) يحلّ فيه الاكتساب بالتعلُّم، مكان الاكتساب الأُموميّ، الذي غابت فيه الملكة اللغويّة (القدرة الطبيعيّة) لدى الإنسان العربيّ، في بيئة تعدَّدت فيها المستويات اللغويّة، وتحيَّر اللغويُّون في تحديد (الاختيار)، الذي يخدم المتلقِّي، ممّا يحتِّم عليهم إعادة النظر في المسألة اللغويّة في العربيّة، والإفادة من الآراء النافعة لدى علمائنا، وتمثّل النظريات الغربيّة واختيار المناسب منها لكي يتمكَّن الدَّارسون من الانتفاع من كل ذلك.